التعليم بدمشق في زمن المماليك

الدكتور أحمد حطيط*

أوّلًا: مدخل

تميّز التعليم في العصور الإسلاميّة بالطابع الدينيّ، وغلبت على مناهجه العلوم الدينيّة، كعلوم القرآن والفقه والحديث والتفسير، فضلًا عن اللغة العربيّة، بما هي وعاء للفكر العربيّ - الإسلاميّ. وكان طبيعيًّا، والحالة تلك، أن تشرف المرجعيّة السلطويّة في الإسلام على المؤسّسات التعليميّة، وأن يكون العالِم والمتعلّم من رجال الدين، وأن تكون الثقافة إسلاميّة خالصة.

وقد حرص سلاطين المماليك، منذ نشوء دولتهم، على إحياء الخلافة العبّاسيّة في القاهرة، بعد سقوطها في بغداد العام ٦٥٦/١٢٥٨، ودرجوا على نهج أسلافهم الأيّوبيّين، فعملوا على تعزيز المظاهر الإسلاميّة، بأن أكثروا من بناء المنشآت الدينيّة، وبخاصّة الجوامع والمساجد والمدارس ودُور العلم الأخرى، كما شجّعوا على إقامتها، وخصّصوا لها الأوقاف الكبيرة، وذلك لدوافع دينيّة ودنيويّة، كي يوفّروا لسلطتهم الشرعيّةَ الدينيّة التي كانوا يحتاجون إليها، نظرًا إلى أصولهم المشكوك فيها، ولاغتصابهم السلطة من أسيادهم الأيّوبيّين. وعليه، فقد أصبح بناء المدارس والمساجد، وغيرها من الأماكن الدينيّة والتعليميّة،

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانيّة.

ورصد الأوقاف لها، ليس من أهمّ أعمال السلاطين وأمرائهم وحسب، بل عملٌ جليل يقوم به كلّ قادر على البذل والعطاء، طلبًا للفوز بالدين والدنيا.

ثانيًا: مؤسّسات التعليم الدمشقيّة في عصر المماليك

يعود الفضل في نشوء المدارس إلى عهد السلاجقة. وإنّ البادئ بها، فيما يشاع، هو نظام المُلك، وزير السلطان ملكشاه السلجوقيّ، وإنّ الدافع الرئيسيّ إلى ذلك هو تعزيز نصرة المذهب السنّيّ على المذاهب الإسلاميّة الأخرى، وترسيخه في نفوس أتباعه في ديار الإسلام.

وإذا كان شيوع دُور العلم بدمشق يُرجعه معظم المؤرّخين إلى السلطان نور الدين زنكي، فإنّ تزايد انتشار هذه الدور بحاضرة الشام، في العصرَيْن الأيّوبيّ والمملوكيّ، استقطب أعدادًا كبيرة من العلماء وطلبة العلم من جميع أقطار العالم الإسلاميّ الشرقيّ والغربيّ. فعمرت دمشق، آنذاك، بكبريات المؤسّسات التعليميّة التي عكف على إنشائها الحكّام، وأزواجهم، وبناتهم، والعتقاء، والإماء، وكبار الأعيان.

تنوّعت دور العلم في دمشق، واشتملت على المدارس باختصاصاتها المختلفة، وعلى الجوامع والمساجد والكتاتيب والخوانق والزوايا والرُبُط والتُرَب وغيرها، وانقسم التعليم فيها إلى نوعَيْن: عامّ مجّانيّ تتولّاه الدولة، وخاصّ يتولّاه أهل البرّ من النخب الاجتماعيّة والعلماء.

١ - المدارس

يستفاد ممّا ورد في المصادر المعاصرة، التي اطّلعتُ عليها، أنّ أوّل مدرسة أقيمت في دمشق تعود إلى العام ٤٠٠/١٠٠٩، حين أنشأ رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقيّ (ت. ٤٤٤/١٠٥٢) مدرسة لتعليم القرآن، عُرِفت بدار القرآن الرشائيّة[1]، ثمّ أنشأ الأمير شجاع الدولة صادر بن

(١) النعيميّ، عبد القادر محمّد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنيّ، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١، ج ١، ص ص ١١-١٢.

عبدالله المدرسة الصادريّة، العام ١٠٩٨/٤٩١، اختصّت بتعليم المذهب الحنفيّ، كما أنشأ أمين الدولة كمشتكين، العام ١١٢٠/٥١٤، المدرسة الأمينيّة وكرّسها لتدريس الفقه الشافعيّ. وبإقامة نور الدين أوّل مدرسة للحديث لأهل السنّة والجماعة في دمشق، العام ١١٥٤/٥٤٩، المعروفة بـ«دار الحديث النوريّة الكبرى»، يكون قد أعطى إشارة الانطلاق لانتشار المدارس الكبرى في دمشق وسائر بلاد الشام.

إحتمّت مدارس دمشق بتدريس الفقه على أحد مذاهب السنّة الأربعة، وبخاصّة المذهبَين الشافعيّ والحنفيّ، أكثر المذاهب الإسلاميّة انتشارًا في بلاد الشام، آنذاك. أمّا مدارس المذهبَين الحنبليّ والمالكيّ فكانت بموجودة في دمشق، وإن ظلّ حضورها متواضعًا، نشاطًا وعددًا، قياسًا على مدارس المذهبَين الأوّلين. واعتمادًا على ما ذكره النعيميّ (ت ١٥٢١/٩٢٧)، يمكن القول إنّ مدارس دمشق في أواخر العصر المملوكيّ بلغت مئة وثلاثين عددًا، وكانت موقوفة على المذاهب الفقهيّة الأربعة، وموزّعة كالآتي:

ثلاث وستّون مدرسة لتعليم الفقه الشافعيّ، واثنتان وخمسون مدرسة لتعليم الفقه الحنفيّ، وإحدى عشرة مدرسة لتعليم الفقه الحنبليّ، وأربع مدارس لتعليم الفقه المالكيّ. يضاف إليها ثلاث مدارس للطبّ، وسبع دور لإقراء القرآن. مع الإشارة إلى أنّ بعض هذه المدارس قد أنشئ في أيّام عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، وفي زمن صلاح الدين وخلفائه من سلاطين بني أيّوب، واستمرّ قائمًا في عصر المماليك، بعد أن جرى ترميمه وتوسعته.

أ - من مدارس الشافعيّة بدمشق

- المدرسة الجاروخيّة: أسّسها الأمير سيف الدين التركمانيّ، العام ١١٤٣/٥٣٨، في حارة «السبع طوالع» شمال الجامع الأمويّ.
- مدرسة الكلّاسة، سمّيت بهذا الاسم لأنّها كانت موضع الكلس أيّام بناء الجامع الأمويّ. أمر ببناء الكلّاسة السلطان نور الدين زنكي، عام

٥٥٥/ ١١٦٠، وهي ملتصقة بالجامع الأمويّ من جهته الشماليّة.

- المدرسة الشاميّة البرّانيّة، وموقعها في العقيبة الكبرى: أنشأتها ستّ الشام ابنة نجم الدين أيّوب، العام ٥٨٢/ ١١٨٦، وكانت كبرى مدارس الشافعيّة.
- المدرسة الباذرائيّة في باب الجامع الأمويّ الشرقيّ: أقامها نجم الدين عبدالله الباذرائيّ، عام ٦٥٤/ ١٢٥٦، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، ويعرف الحيّ باسمها.
- المدرسة النجيبيّة: أمر ببنائها الأمير آقوش بن عبدالله النجيبيّ، نائب دمشق، عام ٦٧٧/ ١٢٧٨، في موقع لصيق بالمدرسة النوريّة الكبرى (في سوق الخيّاطين اليوم).
- المدرسة الظاهريّة الجوّانيّة: أنشأها السلطان السعيد بركة بن الظاهر بيبرس لوالده، العام ٦٧٨/ ١٢٧٩، وموقعها شمال الجامع الأمويّ، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم.
- المدرسة الطقطائيّة: أنشأها الأمير طقطاي دوادار يلبغا اليحياويّ، العام ٧٤٨/ ١٣٤٧، داخل باب الصغير. تمّ تجديد هذه المدرسة في أيّام العثمانيّين، واستمرّت من بعدهم، وهي اليوم مُصَلّى.

ب – من مدارس الحنفيّة بدمشق

- المدرسة الخاتونيّة البرّانيّة: أنشأتها الستّ زمرّد خاتون، العام ٥٢٦/ ١١٣١، وموقعها غربيّ دمشق في منطقة تلّ الثعالب.
- النوريّتان الصغرى والكبرى: أسّسهما نور الدين زنكي، الأولى عام ٥٦٠/ ١١٦٤، داخل جامع دمشق، والثانية عام ٥٦٦/ ١١٧٠، في سوق الخواصين، وأضحت، العام ٧٢٥/ ١٣٢٦، من أهمّ مدارس الحنفيّة في المدينة.
- المدرسة اليغمورية: موقعها غربيّ جبل قاسيون. أسّسها الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، العام ٦٥٥/ ١٢٥٧، واستمرّت عامرة حتّى أواخر العصر المملوكيّ.
- المدرسة المنجكيّة: في منطقة الخلخال، غربيّ دمشق، شيّدها الأمير

سيف الدين منجك اليوسفيّ الناصريّ، العام ٧٧٢/ ١٣٧٠. إستمرّت المنجكيّة إلى أوائل العصر العثمانيّ.

ج - من المدارس المشتركة بين الشافعيّة والحنفيّة

- المدرسة الأسديّة: أسّسها الأمير أسد الدين بن شادي، العام ٥٦٠/ ١١٦٤، بالشُرف القبليّ ظاهر دمشق.
- المدرسة العذراويّة: أنشأتها عذراء بنت شاهنشاه بن أيّوب، العام ٥٨٠/ ١١٨٤، داخل باب النصرة، استمرّت إلى أواخر القرن التاسع.
- المدرسة الجهاركسيّة: أسّست، عام ٦٠٨/ ١٢١١، في الصالحيّة. وهي منسوبة إلى الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحيّ.

د - من مدارس الحنابلة بدمشق

- المدرسة الحنبليّة: أنشأها عبد الوهّاب بن عبد الواحد الحنبليّ، العام ٥٣٠/ ١١٣٥، بين المدرستَين الرواحيّة والمقدّميّة. وهي أولى مدارس الحنابلة بدمشق، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم في العمارة الجوّانيّة، على مقربة من حمّام السلسلة.
- المدرسة الصاحبيّة: أقامتها الصاحبة ربيعة بنت أيّوب بن شادي أخت السلطان صلاح الدين، العام ٦٢٨/ ١٢٣٠، في الصالحيّة، وكان بها أيضًا مدرسة للحديث.
- المدرسة الصدريّة: عمّرها صدر الدين أسعد بن عثمان بن منجا، العام ٦٥٧/ ١٢٥٨، في زقاق درب الريحان على مقربة من الجامع الأمويّ.

هـ - من مدارس المالكيّة بدمشق

- الزاوية المالكيّة: أمر بإنشائها صلاح الدين، العام ٥٨٠/ ١١٨٤، في الجهة الغربيّة من الجامع الأمويّ قرب المقصورة الحنفيّة. إستمرّت هذه الزاوية حتّى أواخر عصر المماليك.
- المدرسة الشرابيشيّة: شيّدها نور الدولة عليّ بن محاسن الشرابينيّ، العام ٦٧٠/ ١٢٧١، في درب الشعارين داخل باب الجابية (منطقة الحريقة حاليًا)، وهي اليوم مندثرة.

- المدرسة الصمصامية: هي كبرى مدارس المالكيّة بدمشق، أقامها شمس الدين غبريال الأسمريّ، ويرد، أيضًا، «الأسلميّ»، العام ٧١٧/ ١٣١٧، في محلّة الذهب. خربت الصمصاميّة في أوائل العصر العثمانيّ.

و - من دور الحديث في دمشق

تُسمّى وظيفتها مشيخة الحديث، ومنها:

- دارا الحديث الأشرفيّة الجوّانيّة، جوار باب القلعة الشرقيّ، والأشرفيّة البرّانيّة، بسفح جبل قاسيون على ضفّة نهر يزيد. بنى الدارين الأشرف موسى بن العادل الأيّوبيّ.
- الدودارية، نسبة إلى مؤسّسها الأمير علم الدين سنجر الدودار (ت. ٦٦٩/ ١٢٧٠). وهي دار حديث ومدرسة ورباط، داخل باب الفرج، ويعرف اليوم بـ«باب المناخليّة».
- دار الحديث السكّريّة، بالقصّاعين، وهي اليوم مندثرة.
- دار الحديث النوريّة، أُولى دار للحديث أُنشئت بدمشق، وهي اليوم مسجد جامع بنا قبر منشئها نور الدين زنكي.

ويضاف إلى المؤسّسات التعليميّة السالفة دور لتعليم القرآن كانت، كما دور الحديث، وافرة الانتشار بدمشق، ومنها: الخيضريّة، والدلاميّة، والرشائيّة، والصابونيّة.

٢ - مدارس الطبّ

وهي قليلة العدد على الرغم من صلة الطبّ باهتمام الناس. كان تعليم الطبّ في عصر المماليك يجري في مدارس خاصّة وفي البيمارستانات. اختصّت المدارس بالجوانب النظريّة من العلوم الطبيّة، في حين اختصّت البيمارستانات، عمومًا، بالجانب العمليّ، حيث يعمد الطلبة إلى ممارسة ما تعلّموه في المدارس.

عرفت دمشق في عصر المماليك ثلاث مدارس للطبّ مهمّة، هي:

- المدرسة الداخوريّة في سوق الصاغة العتيق، جنوب الجامع الأمويّ. أنشأها عبد الرحيم بن عليّ الداخور، العام ٦٢١/ ١٢٢٥.
- المدرسة الليوديّة خارج دمشق، أنشأها يحيى بن محمّد الليوديّ، العام ٦٦٤/ ١٢٦٧، وكان يُدرَّس فيها الطبّ إلى جانب الهندسة.
- المدرسة الدنيسريّة غرب باب البيمارستان النوريّ.

من بيمارستانات دمشق:

البيمارستان النوريّ، والبيمارستان القيمريّ، وبيمارستان باب البريد.

تولّى التدريس في مدارس دمشق مشاهير علماء العصر المملوكيّ في العلوم الدينيّة والدنيويّة ومعارف شتّى، المعروفة آنذاك، ممَّن عُرفوا بالعلم الواسع والخلق الرضيّ. ومن هؤلاء:

شرف الدين عليّ بن يوسف الرحبي (ت. ٦٦٧/ ١٢٦٨)، ومحيي الدين يحيى النواوي (ت. ٦٧٧/ ١٢٧٨)، وشمس الدين أحمد بن خلّكان (ت. ٦٨١/ ١٢٨٢)، وعزّ الدين إبراهيم بن محمّد السويديّ (ت. ٦٩٠/ ١٢٩١)، وتاج الدين محمّد بن عصرون (ت. ٦٩٦/ ١٢٩٦)، وجمال الدين محمّد بن سليمان الزواوي (ت. ٧١٧/ ١٣١٧)، ونجم الدين أحمد بن صصرى (ت. ٧٢٣/ ١٣٢٣)، ومحيي الدين محمّد بن الزكيّ (ت. ٧٣٥/ ١٣٣٤)، وشهاب الدين أحمد بن عليّ البالسي (ت. ٨٢٥/ ١٤٢٢)، وشمس الدين محمّد الأذرعيّ (ت. ٨٣٣/ ١٤٢٩)، وبدر الدين محمّد بن قاضي شهبة (ت. ٨٧٤/ ١٤٦٩).

كانت المدرسة تفتتح، عادة، باحتفال يتصدّره السلطان، أو نائبه، في جمع من الأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان. يُستهلّ الاحتفال بأن يلقي أحد شيوخ المدرسة درسًا في الفقه أو الحديث، ثمّ يُمدّ سماط يتخلّله إلقاء خطب وقصائد شعريّة من وحي المناسبة. وبعد ذلك يخلع السلطان، أو مَن ينوب عنه، على المهندسين والبنّائين وعلى

شيخ المدرسة[٢].

ولم يكن للمدرسة المملوكيّة في دمشق، كما في سائر بلاد الشام والديار المصريّة، بناء مستقلّ قائم بذاته عمومًا، بل كانت المدرسة في معظم الأحيان ملحقة بالوقفيّة التي بناها الحكّام وكبار الأعيان ليدفنوا فيها بعد وفاتهم. ومن ذلك: مدرستا السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بدمشق (ت. ٦٧٦/ ١٢٧٧)، واحدة للشافعيّة وأخرى للحنفيّة، بناهما ولده السلطان السعيد بركة[٣]، ومدرسة السلطان المنصور قلاوون بالقاهرة (ت. ٦٨٩/ ١٢٩٠)[٤].

روعي في تصميم بناء المدرسة، إجمالًا، تحديد موقع إيوانها (وهو بمثابة قاعة المحاضرات اليوم)، وعدد المذاهب التي تدرّس فيها، ومساكن للطلبة والمدرّسين، ومواقع خزانات الكتب والمصاحف وغيرها، علاوة على المطبخ، وغرفة الطعام، وخزانة الأدوية الضروريّة.

٣ - المؤسّسات التعليميّة الأخرى

كانت تختصّ بنشر العلوم الدينيّة بين المسلمين صغارًا وكبارًا، وذلك بإشراف الدولة من خلال المحتسب وقاضي القضاة وشيخ الشيوخ؛ ولها أوقاف تغطّي نفقاتها، ومن هذه المؤسّسات:

أ - الكتّاب: هو من أكثر المؤسّسات التعليميّة انتشارًا، وقلّما خلا حيّ أو زقاق من أزقّة دمشق من وجود كتّاب أو أكثر.

يتولّى الكتّاب المرحلة الأولى من مراحل التعليم. ويُعنى أساسًا

---

(٢) ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن عليّ، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩، ج ١، ص ٧٧٢.

(٣) حول هذه المدرسة، انظر: ابن شدّاد، عزّ الدين محمّد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسبادن، ١٩٨٣، ص ص ٢٢٧-٢٣٠.

(٤) لمزيد من المعلومات عن المدرسة المنصوريّة، انظر: المقريزيّ، تقيّ الدين أحمد بن عليّ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمّد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧٠، ج ١/ق ٣، ص ص ٩٩٧-١٠٠١ (ملحق رقم ٩).

بالتعليم الدينيّ، حيث يجري فيه تعليم الصبيان القرآن وجانبًا من الأحاديث النبويّة، فضلًا عن القراءة والكتابة، وبعض من الشعر والنحو والقواعد الأساسيّة لعلم الحساب، ليتصرف معظم الصبية، بعد ذلك، إلى اكتساب صنعة ما أو حرفة معيّنة. ويطلق على مدرّس الكتّاب اسم «المؤدّب».

عرفت دمشق في عصر المماليك نوعَيْن من الكتاتيب: الكتاتيب الأهليّة أو الخاصّة، حيث يتمّ تعليم الصبيان لقاء معلوم، والكتاتيب العامّة حيث التعليم بلا أجر، ومرتبط بالأوقاف، ومكان الكتاتيب العامّة المسجد عمومًا.

يتولّى إنشاء الكتاتيب العامّة، والقيام عليها وتولّي تكلفتها، أصحاب الجاه في الدولة، ابتغاء مرضاة الله والأجر والثواب، ومنها: كتّاب الأيتام الذي أوقفته زوجة تنكز نائب دمشق ضمن تربتها[٥]، وكتّاب الأيتام في باب قلعة دمشق الذي وقفه الطواشي ظهير الدين مختار البكتمري الخزندار[٦].

ب - الجوامع: منذ بداية الإسلام، أدرك المسلمون أهمّيّة الدور التوجيهيّ والتعليميّ للجامع بالإضافة إلى دوره العباديّ والسياسيّ تيمّنًا بدور المسجد الذي أقامه الرسول في المدينة. وفي العصر المملوكيّ، حظيت دور العبادة بعامّة والجوامع والمساجد بخاصّة برعاية السلاطين والأمراء واهتمامهم، فأنفقوا الأموال الطائلة على بنائها وتجديدها وزيادتها، فكان لها كبير الأثر في نشر المعارف والعلوم، وخصوصًا الجامع الأمويّ والمساجد الأخرى التي أقامها نوّاب السلطنة بدمشق، مثل جامع الأفرم في الصالحيّة، وجامع تنكز بجوار قلعة دمشق، وجامع ابن منجك في الميدان، وجامع كفر بطنا في الغوطة. وقد

---

(٥) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ج ١٤، ص ٢٧٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

تحدّث ابن فضل الله العمريّ (ت. ٧٤٩/١٣٤٨) عمّا شاهده في الجامع العمريّ، فأشار إلى أنّه كان معمورًا بالناس: «ففيه المصلّون، والأئمّة، والمؤذّنون، والقرّاء، والمفتون، ومشايخ العلم وطلبته، ومدارس الحديث والفقه والتفسير وقرّاء الأسباع، ويُصرف ريع أوقاف الجامع على كلّ مَن يدخله بقصد العلم والاستفادة، سواء كان عالمًا أم متعلّمًا أو مستمعًا»[٧].

ج - الخوانق والرُبُط والزوايا: تعتبر الخوانق والرُبُط والزوايا بيوتًا خاصّة بالمريدين المتصوّفة الفقراء، من رجال ونساء، يدخلون فيها إلى أنفسهم ويتفرّغون للعبادة. وقد تكاثرت هذه المؤسّسات التعليميّة متناسبة مع تنامي حركة التصوّف في العصرَين الأيّوبيّ والمملوكيّ، بتشجيع من الحكّام[٨]. رتّبت في هذه المؤسّسات دروسٌ للفقه على المذاهب الأربعة، بالإضافة إلى دروس في الحديث وإقراء القرآن ودروس الصوفيّة، وتولّى تدريسها جميعًا شيوخ ومدرّسون وقرّاء.

+ الخانقاه: كلمة فارسيّة تعني بيت الدراويش والصوفيّة والفقراء. من أبرزها في دمشق زمن المماليك: الخانقاه السميساطيّة شمال شرق الجامع الأمويّ.

+ الرباط: أنشأه المسلمون لدواعي المرابطة في الثغور لمجاهدة الأعداء، ثمّ تحوّل مع الوقت إلى دار للعبادة وتدريس العلوم الدينيّة. من أشهر رُبُط دمشق أيّام المماليك: الرباط الناصريّ، والرباط الدواداريّ.

+ الزاوية: هي كالخانقاه والرباط من حيث الدور والوظيفة، ولكنّها أصغر

---

(٧) ابن فضل الله العمريّ، شهاب الدين أحمد، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، القاهرة، ١٩٢٤، ج ١، ص ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٨) عن مكانة الصوفيّة في المجتمع الشاميّ في عصر المماليك، راجع ما ذكره عنهم كلّ من ابن بطّوطة، الرحلة، تحقيق عليّ المنتصر الكتاني، بيروت، ١٩٧٩، ج ١، ص ٥٤؛ وابن أيبك الصفديّ، الوافي بالوفيات، تحقيق عدنان البخيت ومصطفى الحيّاوي، فيسبادن، ١٩٩٣، م ٢٤، ص ١٢١.

منهما في الغالب. كان معظم الزوايا منتشرًا في سفح جبل قاسيون، وفي رحاب الجوامع والمساجد الدمشقيّة. من أهمّها: الزاوية الداوديّة، أكبر الزوايا الدمشقيّة وأكثرها شهرة، والزاوية الغسوليّة، والزاوية القوميّة البالسيّة، والزاوية الموصليّة.

د - التربة: كان يدرّس في بعضها علوم الدين والقرآن ولها أوقاف، وأهمّها: التربة الأشرفيّة شمال الكلّاسة، وتربة أمّ الصالح، والتربة العزيّة البدرانيّة الحمزيّة بالصالحيّة، والتربة الكامليّة الصلاحيّة البرّانيّة، والتربة البهنسيّة بسفح قاسيون.

إستتبعت النهضة العلميّة التي عرفتها دمشق في زمن المماليك، انتعاشًا لحركة تصنيف الكتب وجمعها ونسخها وتجليدها، ساعد على ذلك توافر مصانع للورق وأسواق لبيعه (سوق الورّاقين وسوق الكتبيّين في باب البريد وفي جوار الجامع الأمويّ)، ممّا أدّى إلى انتشار خزائن للكتب عامّة (مكتبات رقميّة)، وخزائن للكتب خاصّة، وذلك لحفظها ولتسهيل مهمّة اتّصال طلبة العلم بها. كانت هذه الخزائن ملحقة، عمومًا، بدور العلم في دمشق وفي محيطها، فقلّما قام جامع أو مسجد أو مدرسة من دون مكتبة.

ولمكتبة المدرسة خازن يتدبّر أمرها، ويحافظ على محتوياتها، ويرمّم من الكتب ما يتطلّب ترميمًا، ولا يُعيرها إلّا لمَن ليس قادرًا على اقتنائها. وعليه، في مطلق الأحوال، أن يتقيّد في ذلك، وفي شؤون أخرى، بما اشترطه الواقف[٩].

من المكتبات العامّة بدمشق في عصر المماليك: مكتبة الجامع العمريّ، ومكتبة دار الحديث الأشرفيّة الجوّانيّة، ومكتبة دار الحديث الضيائيّة، ومكتبة جامع تنكز، ومكتبة البيمارستان النوريّ، ومكتبة المدرسة الداخوريّة.

---

(٩) السبكي، تاج الدين عليّ، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمّد عليّ النجّار، القاهرة، ١٩٤٨، ص ص ١٠٦-١١٢.

أمّا المكتبات الخاصّة فتوزّعت في مكتبات العلماء (مكتبة أبي شامة، ومكتبة محيي الدين النواوي، ومكتبة الشيخ البرزالي، ...)، ومكتبات الأطبّاء (مكتبة ابن أبي أصيبعة، ومكتبة تلميذه أبي الفرج بن القفّ، ومكتبة عزّ الدين محمّد بن السويديّ، ...).

ثالثًا: مستويات التعليم

في ضوء ما تقدّم، نستطيع أن نميّز بين مستويات مختلفة من التعليم بدمشق في زمن المماليك: تعليم في الكتاتيب، وتعليم في المدارس، وتعليم في دور العلم الأخرى (جوامع وخوانق وربط وزوايا وغيرها). ومع ذلك، لم يكن التعليم منقسمًا إلى المراحل التي نعرفها اليوم، أي إلى تعليم ابتدائيّ وتعليم ثانويّ وتعليم جامعيّ. ويمكننا، تجاوزًا، اعتبار التعليم في الكتّاب مماثلًا للتعليم الابتدائيّ، أمّا التعليم في المدارس وفي المؤسّسات التعليميّة الأخرى فيوازي التعليم في المرحلتَين الثانويّة والجامعيّة.

نشير في هذا السياق إلى أنّ التعليم في الكتّاب كان، ومنذ أمد بعيد، منتشرًا في المناطق الإسلاميّة كافّة، أمّا التعليم المتقدّم (الثانويّ والعالي بحسب تعبيرنا اليوم) فكانت تعقد له حلقات ذات مستويَين اثنَين في إطار المدارس: حلقات يمنح الطالب بموجبها تعليمًا عامًّا يوازي مستوى التعليم الثانويّ، حيث يُقرأ على الطلبة فيها بعض كتب الفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، في حين يُقدَّم إلى الطالب في الحلقات الأخرى تعليم أكثر تخصّصًا وتعمّقًا مماثلٌ لمستوى التعليم الجامعيّ، حيث يطّلع الطلبة على أمّهات الكتب في مختلف حقول علوم العصر، وبخاصّة في العلوم الدينيّة، ليُكبّ هؤلاء بعدها على البحث الجادّ، ويطلب إليهم أن يصنّفوا في مجال اختصاصاتهم كي يصبحوا بدورهم مدرّسين.

يرتبط مستوى المدرسة بشكل مباشر بمستوى مدرّسيها وبمدى

أهليّتهم وكفاياتهم العلميّة. فإذا شغل وظيفة التدريس معيدون، أو مدرّسون جدد لا خبرة لهم، يكون مستوى المدرسة أقرب إلى مستوى المدرسة الابتدائيّة أو الثانويّة. أمّا إذا أسند التعليم في المدرسة إلى شيوخ من المشهود لهم يرتقي مستوى المدرسة إلى مستوى التعليم العالي[١٠]. ومن ذلك: إنّ كبريات مدارس دمشق، كالمدرسة الأسديّة، ودار الحديث الأشرفيّة الجوّانيّة، والمدرسة العادليّة، والمدرسة النوريّة، والمدرسة الظاهريّة، كانت ذائعة الصيت وذات مستوى عال، لأنّ مدرّسيها عُرِفوا بمكانتهم العلميّة المرموقة، ومنهم: شمس الدين أحمد بن خلّكان، وصلاح الدين خليل بن كيكلدي، ونجم الدين أحمد بن صصرى، ورشيد الدين عمر بن إسماعيل الفارقيّ، وعماد الدين عليّ بن أحمد الطرسوسيّ.

رابعًا: الانتساب إلى المدرسة

بعد أن يتمّ الصبيّ في الكتّاب سنّ الثانية عشرة أو الخامسة عشرة، يبدأ بتلقّي العلوم في مرحلة ثانية، وينجزها بعد دراسة تتراوح ما بين خمس وعشر سنوات، وذلك حسب قدراته الذهنيّة والثقافيّة، يمكنه متابعة الدراسة حتّى الخامسة والعشرين من عمره كحدّ أقصى[١١]. وليس من شروط خاصّة يفرضها النظام التعليميّ للمدرسة باستثناء شروط الواقف، فلهذا الأخير وحده حقّ تحديد عدد الطلبة المنتسبين إلى مدرسته، ومذاهبهم، وموادّ التدريس، ومناهج الدراسة، وتسمية شيخ المدرسة ومدرّسيها. يذكر الحافظ شمس الدين الذهبيّ (ت. ٧٤٨/١٣٤٨) أنّ واقف المدرسة الرواحيّة بدمشق زكيّ الدين بن رواحة (ت. ٦٢٣/١٢٢٦) قد أفردها لتدريس الفقه الشافعيّ، ووضع شروطًا قاسية لتعيين المدرّسين في مدرسته، وفرض بـ«ألّا يدخل مدرسته يهوديّ أو نصرانيّ أو حنبليّ»[١٢].

---

(١٠) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلاميّة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٢٧.

(١١) خليل طوطح، التربية عند العرب، ص ٧٨.

(١٢) الذهبيّ، شمس الدين محمّد، العبر في أخبار مَنْ غَبَر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٨٥، ج ٣، م ٣، ص ٨٩.

خامسًا: المناهج التعليميّة

إختلفت المناهج التعليميّة في مدارس دمشق باختلاف دور العلم ومستويات التعليم فيها. فما يدرّس في الكتّاب مثلًا، يختلف تمامًا عمّا يدرّس في المدارس أو في الجوامع والمساجد. وكانت للمذاهب السنّيّة الأربعة مدارس أُنشئت خصوصًا لها، كما أسلفنا، فيعلّم فقه كلّ منها في مدارس معيّنة لها مناهجها وموضوعاتها الخاصّة بها[١٣]، وإن لم يمنع، أحيانًا، أن يُجمع تدريس فقهي مذهبَين في مدرسة واحدة، إذا نصّت على ذلك وصيّة الواقف، كما جرى الحالّ للشافعيّة والحنفيّة، المذهبَين الرئيسيَّين في دمشق وفي سائر بلاد الشام أيّام المماليك. مثالنا على ذلك المدرسة الأسديّة، والمدرسة الظاهريّة، والمدرسة الدماغيّة[١٤]، وربّما اشترك في تدريس موضوع واحد عدّة مدرّسين، فيكون لكلّ مدرّس ثلث أو نصف درس، أو يجمع المدرّس الواحد عدّة دروس في مدارس مختلفة. وكذلك، فإنّ مدارس دمشقيّة كانت تدرّس الحديث والقرآن إلى جانب علوم اللغة والحساب، ومنها المدرسة التنكزيّة، والمدرسة المعبديّة[١٥].

لم تكن مناهج التدريس محدّدة بدقّة كي يتقيّد بها العالِم والمتعلّم. فثمّة عدد من كتب الفقه والحديث والنحو يختارها المدرّس، ويعلّمها لطلبته، بالإضافة إلى بعض القراءات التي يراها ضروريّة. ويحرص الطلبة النابهون على حفظ جملة من الكتب الأساسيّة الرائجة في أيّامهم، منها: كتاب التنبيه والمنهج الأصليّ للنواوي، والشاطبيّتان في القراءات لأبي محمّد الشاطبيّ (ت. ٥٩٠/١١٩٤)، والكافية لابن رجب، وألفيّة ابن مالك (ت. ٦٧٢/١٢٧٤)، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، فضلًا عن مشاهير كتب الرجال، ككتاب وفيات الأعيان لابن خلّكان، وكتاب فوات

---

(١٣) السبكي، طبقات الشافعيّة الكبرى، تحقيق عبد الفتّاح محمّد الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة، ١٩٦٤، ج ٩، ص ٩٨.

(١٤) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ص ٣٤٨ و٣٧٣.

(١٥) المصدر نفسه، ص ص ١٢٣ و١٢٨.

الوفيات لابن شاكر الكتبيّ، وكتاب الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفديّ.

يمكن للشيخ أن يمنح بعض المتقدّمين من الطلبة، ممّن يلازمونه «ملازمة نافعة»، ويدرسون عليه كتابًا معيّنًا، إجازة (شهادة) يشهد فيها أنّ الطالب المعنيّ قد استوعب جيّدًا هذا أو ذاك من الكتب التي درسها بإشرافه.

كانت المناهج التعليميّة في دمشق، كما في سائر أنحاء الدولة المملوكيّة، منقسمة، بصورة عامّة، إلى نوعَيْن من المناهج: مناهج العلوم الدينيّة، ومناهج العلوم الدنيويّة أو المناهج العلميّة.

١ - مناهج العلوم الدينيّة

تتضمّن هذه المناهج الفقه، وعلوم القرآن، وعلم التفسير، ودراسة الحديث وروايته، وعلوم العربيّة، كعلم النحو واللغة والأدب نثرًا وشعرًا، والتاريخ لصلته المباشرة بالعلوم الدينيّة، وبسير الأنبياء والرسل، ولغناه بالحكمة والتجارب النافعة والأمثلة المشجّعة على الفضائل، كالشجاعة، والتضحية، والمروءة، والصبر على الشدائد.... وقد أشار إلى ذلك صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ، مبيّنًا فوائد علم التاريخ، فقال: «وربّما أفاد التاريخ حزمًا وعزمًا وموعظة وعلمًا، وهمّة تذهب همًّا، وحيلًا تثار للأعادي من مكامن المكايد....، وصبرًا يبعثه التأسّي بمَن مضى، واحتسابًا يوجب الرضا بما مرّ وحلا من القضا، ... فكم تشبّث مَن وقف على التواريخ بأذيال مَعالٍ تنوّعت أجناسها، وتشبّه بمَن أخلد خموله إلى الأرض وأصعده سعده إلى السهى، لأنّه أخذ التجارب مجّانًا ممّن أنفق فيها عمره، وتجلّت له العبر في مرآة عقله...، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب»[١٦].

٢ - مناهج العلوم الدنيويّة

كانت الموادّ العلميّة تدرّس في الأصل إلى جانب العلوم الدينيّة،

---

(١٦) ابن أيبك الصفديّ، الوافي، تحقيق هلموت ريتر، فيسبادن، ١٩٨١، ج ١، ص ٥.

والطالب حرّ في دراستها شريطة ألّا تُعيق عمليّة اكتسابه علوم الدين. وبكلمة ثانية، يتوجّب على الطالب أن ينكبّ، أساسًا، على دراسة الدين، ومن ثمّ يلجأ، إذا ما رغب، إلى اكتساب العلوم الأخرى، وهو أمر يشجّع عليه الإسلام، قرآنًا وسنّة. فالكمال الإنسانيّ، بحسب ابن خلدون[١٧]، يقوم على التوفيق بين الدين والعلم.

إحتوت المناهج العلميّة على مختلف أنواع العلوم الطبيعيّة، والطبّ، والجراحة، وعلم الصيدلة، وعلم النبات، وعلم الحيوان، والرياضيّات (الحساب والجبر والهندسة)، وعلم الفلك، وغيرها من العلوم العقليّة[١٨].

كان فنّ العمارة وهندسة المباني والطرق الأكثر رعاية بين العلوم الدنيويّة في عصر المماليك، للحاجة إليها في تشييد المباني. ويشهد على ذلك كثافة المعائر الدينيّة والدنيويّة التي حرص سلاطين المماليك ونوّابهم على تشييدها في دمشق، وفي غيرها من الحواضر الخاضعة لدولتهم.

أمّا الفلسفة فقد أهمل تعليمها في المدارس والجوامع، في عصر المماليك، كما كان الأمر عليه في العصر الأيّوبيّ، ولم يُخصّص لها حيّز في المناهج التعليميّة، باعتبارها علمًا هدّامًا من الواجب على المسلم محاربة القائلين به إلى حدّ رميهم بالزندقة وإهدار دمائهم. فالفلسفة، بحسب الذهنيّة السائدة، آنذاك، تشوّش الفكر، وتذكي الاختلاف، وتثير الفتن وتعزّز الفرقة بين المسلمين. وتشجّع على التجديف في العقيدة والإيمان، ما يؤثّر سلبًا على الوحدة الإسلاميّة دينيًّا وسياسيًّا.

فبالإضافة إلى إعداد الطلبة في العلوم الإنسانيّة، حرصت المناهج العلميّة على تدريس الطلبة كثيرًا من الموادّ العلميّة. فطلبة الطبّ، مثلًا، كانوا معنيّين، في الوقت نفسه، بتعلّم موادّ العلوم الطبيعيّة، والعلوم

---

(١٧) إبن خلدون، عبد الرحمن، المقدّمة، طبعة بيروت، ١٩٨٢، ص ص ٤٢٨-٤٢٩.
(١٨) المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ١٢٨٤هـ، ص ص ٣٩٩-٤٠٧.

الدينيّة، والنحو، والأدب، وغيرها من العلوم، كي يكتسبوا، بذلك، ثقافة موسوعيّة. لذا، نجد أنّ علماء العصر كانوا منخرطين في مختلف العلوم والفنون الشائعة، آنذاك، وبرعوا في العديد منها، وصنّفوا كتبًا فيها. من هؤلاء، نذكر: العالم عزّ الدين إبراهيم بن محمّد بن طرخان السويديّ (ت. ٦٩٠/ ١٢٩١) الذي ذاع صيته في الطبّ والعلوم العقليّة، وأتقن علوم العربيّة، ونظم الشعر[١٩]، والشيخ ناصر الدين محمّد بن حمد بن العطّار الدمشقيّ (ت. ٧٧٤/ ١٣٧٤) الذي اشتهر بالفقه والحساب، كما كان له باع طويل في علم المساحة[٢٠].

سادسًا: مواقيت التدريس

لم يكن ثمّة تحديد لأوقات الدراسة، فقد كان التدريس يبدأ في الصباح وينتهي عند المساء. يُفتتح الدرس بالبسملة «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، ويختتم بتلاوة سورة الفاتحة، بعد ذكر عبارة «والله أعلم»، أو أيّ كلام يُشعر بختم الدرس، كعبارة: «وهذا آخره»، أو عبارة: «وما بعده يأتي إن شاء الله تعالى»، ونحو ذلك[٢١].

كان المدرّس حرًّا في اختيار مواعيد دروسه اليوميّة أو الأسبوعيّة. ومع ذلك، جرى العرف أن يكون التدريس بعد الصلاة، على أن يحقّ للمتعلّم أن يختار الحصّة التي تتناسب وظروفه. بيد أنّ قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة تحدّث عن ضوابط صارمة لمواقيت الدراسة، منبّهًا المدرّس أنّ عليه في تحديد مواعيد دروسه «مراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره، إذا لم يكن عليه فيه ضرورة ولا مزيد

---

(١٩) ابن شاكر الكتبيّ، محمّد، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٧٣، م ١، ص ص ٤٨-٤٩.

(٢٠) ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح عبد الحيّ، شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، بيروت، ١٩٧٩، ج ٦، ص ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢١) ابن جماعة، بدر الدين إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم، تحقيق محمّد هاشم البدويّ، عمّان، ١٩٩٨، ص ٨١.

كلفة»[٢٢]. فإذا ما ذكر درسه قبل طلوع الشمس أو أخّره إلى ما بعد الظهر، فإنّه لا يستحقّ معلوم التدريس، ما لم يقض بذلك شرط الواقف[٢٣].

وهناك يومان للعطلة في الأسبوع، محدّدان بيوم الجمعة ويوم الثلاثاء، وإن كان لبعض المدارس نظام مخالف، ومنها الظاهريّة الجوانيّة والأمينيّة، حيث يذكر كتاب وقف كلّ منهما، صراحة، أنّ المدرسة تشرّع أبوابها للقيام بواجب التعليم كلّ أيّام الأسبوع، في حين يشترط كتاب وقف المدرسة العمريّة أن تتوقّف المدرسة عن العمل يوم الجمعة فقط[٢٤].

أمّا العطلة السنويّة، فجرت العادة أن تكون خلال شهرَي شعبان ورمضان، وعشرة أيّام في كلّ من شهرَي شوّال وذي الحجّة، بالإضافة إلى أيّام الأعياد، ويومَي التاسع والعاشر من شهر المحرّم[٢٥].

سابعًا: طرائق التدريس

لم يلتزم المدرّسون طريقة واحدة في التدريس، لكنّهم جميعًا ارتأوا أن يكون التعليم متدرّجًا يراعي القدرات الفكريّة والذهنيّة للمتعلّم، «فإنّ قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجيًّا»، بحسب تعبير ابن خلدون[٢٦]. ولأنّ مرحلة الطفولة تتّصف بالهدوء والاستقرار والطاعة، اعتمد التعليم في المراحل المبكرة (مرحلة التعليم في الكتّاب خصوصًا) طريقة عمادها الحفظ والاستظهار والتكرار.

---

(٢٢) المصدر السابق، ص ٨١.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢٤) الذهبيّ، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧٣.

(٢٥) عبد الغنيّ عبد المعطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيّين والمماليك، القاهرة، ١٩٧٧، ص ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢٦) إبن خلدون، المصدر السابق، طبعة القاهرة، ص ٤٦٩.

أمّا في المراحل المتقدّمة من التعليم، فاعتُمِدت طرائق مختلفة لإيصال المعارف إلى المتعلّم، أهمّها ما يلي:

١ - طريقة الإملاء

تُعرف أيضًا بـ«مجلس الإملاء». وهي الطريقة الفضلى لتدريس الفقه والحديث. كان المدرّس يملي على الطلبة من ذاكرته حصيلة أبحاثه، وخلاصة ما اطّلع عليه[٢٧]، مستخدمًا، حينًا، مرجعًا نادرًا ومرتفع الثمن، ليس بمقدور المتعلّم اقتناؤه، ومعتمدًا، حينًا آخر، على ملاحظات مدوّنة يستعين بها في التدريس.

يبدأ المدرّس، وفق هذه الطريقة، بإملاء مقطع ما، يعمد إلى شرحه، وتفسير العبارات الواردة فيه، موضحًا معاني المرادفات العويصة، ثمّ يطلب إلى المتعلّمين أن يدوّنوا الملاحظات المناسبة في هوامش النصّ الأصليّ الذي كتبوه.

بعد انتهاء المدرّس من الإملاء والشرح، يأتي دور المعيد. إذ قلّما خلت مدرسة في العصرَين الأيّوبيّ والمملوكيّ من وجود منصب له. وعليه إعادة ما أملاه المدرّس وشرحه، وذلك لتصحيح بعض الأخطاء في النقل، أو لاستدراك ما يكون قد فات الطلبة فهمه من الدرس[٢٨].

وكانت العادة أن يُسمّى معيد أو أكثر لكلّ مدرّس، يتبعون شيخهم في المذهب وفي مادّة اختصاصه، ويواظبون على حضور دروسه. ونظرًا لأهمّيّة دور المعيد في عمليّة التعليم، رأى ابن جماعة[٢٩] أن يُختار المعيد من بين أكثر العلماء فضيلةً ونزاهة، وأن يكون «صبورًا على أخلاق الطلبة، حريصًا على فائدتهم وانتفاعهم به، قائمًا على وظيفة أشغالهم».

من «مجالس الإملاء» المشهورة في دمشق أيّام المماليك، نذكر:

---

(٢٧) ابن بطّوطة، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤١.
(٢٨) ابن جماعة، المصدر السابق، ص ٢٧٠.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

مجالس جمال الدين بن الحاجب (ت. ٦٤٦/١٢٤٨) النحويّة في الزاوية المالكيّة بالجامع الأمويّ، ومجالس الشيخ المحدّث جمال الدين المزّي (ت. ٧٤٢/١٣٤١) في دار الحديث الأشرفيّة الجوانيّة. وقد أطلق على حصيلة ما كتبه الطلبة إملاءً اسم «المجاميع» أو «الأمالي»، ومنها تكوّنت مخطوطات نُشِر كثير منها لاحقًا، وأضحت كتبًا مشهورة، وقد وصلنا بعض منها في حالته المخطوطة. وقد حملت «الأمالي» عناوين تتناسب ومحتوياتها، ومنها: **أمالي القالي في اللغة** (ت. ٣٥٦/٩٦٧)، **وأمالي المرتضى في الأدب والتفسير** (ت. ٤٣٦/١٠٤٤)، **وأمالي ابن الحاجب في التفسير والنحو** (ت. ٦٤٦/١٢٤٨)، **وأمالي ابن حجر العسقلانيّ في الحديث** (ت. ٨٥٢/١٤٤٨).

٢ - طريقة الإلقاء أو المحاضرة

إعتمادًا على هذه الطريقة، يضع الشيخ كتابًا معيّنًا بين أيدي الطلبة، ويطلب إليهم أن يأتوا حجرة التدريس، بعد أن يكون قد قرأوا على أنفسهم الدرس الجديد.

يبدأ الشيخ محاضرته بتقديم فكرة عامّة عن موضوع الدرس، ومن ثمّ يعرض بإيجاز لأفكاره الرئيسيّة متجنّبًا التفاصيل المعقّدة، ليتنقل، بعد ذلك، إلى قراءة الدرس، فيما الطلبة يتابعون النصّ في نسخ الكتاب خاصّتهم. على أنّ الشيخ يتوقّف عن القراءة بين الفينة والفينة كي يشرح بعض الأمور، أو ليوضح بعض المعاني، ملتزمًا طريقة الشرح المتدرّج الذي يوصي به ابن خلدون.

في أثناء المحاضرة، يحقّ للمتعلّم طرح الأسئلة الاستيضاحيّة، على «أن يسأل تفقّهًا لا تعنّتًا ولا رياء»، بحسب ابن جماعة، وأن يراعي قواعد آداب الحديث في المجالس، باختيار اللحظة المناسبة للكلام، وعدم مقاطعة شيخه أو زملائه.

٣ - طريقة المناظرة

هي من أهمّ طرائق التدريس في المراحل المتقدّمة من التعليم،

لدورها في شحذ الذهن والتدريب على سرعة التعبير والارتجال وتعزيز الثقة بالنفس. لذا، كان المدرّسون يحرصون على تشجيع المتعلّمين على المشاركة بالمناظرات والمناقشات، ويحضّونهم على التدرّب عليها، مفسحين في المجال أمامهم للانخراط في نقاش فكريّ هادف على قاعدة حقّ الاختلاف، ولكن مع مراعاة أصول التهذيب والاحترام[٣٠].

ثامنًا - الإجازات

الإجازة في التقليد الإسلاميّ هي إذن يمنحه الشيخ لأحد المتفقّهة، يُجيز له بموجبه رواية الحديث عنه. وعليه، فإنّ الإجازة، بهذا المعنى، مرتبطة باسم الشيخ الذي يمنحها، وأنّ التعليم العالي في عهد المماليك قام، أساسًا، على الجهود الفرديّة للعلماء، وذلك بحسب اختصاص كلّ منهم. وكان على المتعلّم أن يحضر دروسًا في العلوم الدينيّة، ويدلّل على استيعابه إيّاها متدرّجة ليصير فقيهًا. كما كان عليه أن يتخصّص بأحد علوم الدين، ويثبت تعمّقه فيه، للحصول على إجازة من شيخه.

كانت الإجازة التي يمنحها الشيخ لمَن نهل العلم على يديه على نوعَين: إجازة عامّة وتسمّى إجازة الفتيا، وإجازة تحريريّة تتوزّع في فئات ثلاث: إجازة بعراضة الكتب، وإجازة بالمرويّات، والمناولة.

١ - الإجازة العامّة أو الإجازة بالفتيا

هي شهادة يمنحها الشيخ لأحد طلاّبه، يشهد فيها أنّ الأخير قد أتمّ دراسته وأضحى مؤهّلًا للفتيا والتدريس، ويأذن له بذلك. يذكر في هذه الإجازة اسم الطالب واسم شيخه، ومذهبه، ومكان حصوله على الإجازة (الجامع أو المدرسة أو منزل الشيخ أو دار الحديث...). تُكتب الشهادة، إمّا على الكتاب الذي درسه الطالب، أو على ورقة مستقلّة من القطع العريض، مع الإشارة إلى أنّ قيمة الإجازة تختلف باختلاف مكانة

(٣٠) حول شروط المناظرة وآدابها، راجع: عبد الباسط بن موسى العلموي، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، باعتناء أحمد عيد، دمشق، ١٣٤٩هـ، ص ص ١١٢-١٢٦.

الشيخ الذي يمنحها. ولنصّ الشهادة صياغات عديدة، فقد تكون نثرًا أو شعرًا، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرًا متوالية، بين كلّ سطرين نحو إصبع عريضة[٣١].

من ذلك: إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعيّ حصل عليها القلقشنديّ من شيخه سراج الدين عمر بن الملقن، سنة ٧٧٨/ ١٣٧٦، وجاء فيها أنّه أذن له وأجازه «أن يدرّس مذهب الإمام المجتهد العالِم الربّانيّ، أبي عبدالله محمّد بن إدريس المطّلبيّ الشافعيّ، . . . وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنّفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث أقام وحلّ، كيف ما شاء، ومتى شاء، وأين شاء، وأن يفتي مَن قصد استفتاءه خطًّا ولفظًا، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه، لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرايته، وأهليّته وكفايته».

٢ - الإجازات التحريريّة

أ - الإجازة بعراضة الكتب

جرت العادة أن يحفظ المتعلّم كتابًا في الفقه، أو الحديث، أو النحو، أو الأدب، أو التاريخ، أو غير ذلك من المعارف المتّصلة بعلوم الدين، ثمّ يعرضه على مشايخ العصر، «فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، وينتح منه أبوابًا ومواضع، يستقرئه إيّاها من أيّ مكان اتّفق، فإذا اطمأنّ الشيخ إلى استيعاب الطالب مضمون الكتاب، يكتب له إجازة في عرضه، تكتب في ورق مربّع صغير، يذكر فيها عبارة: «وكذلك عرض عليّ فلان»، أو عبارة: «عرض عليّ وكتبه فلان»، أو ما شاكل هاتَين العبارتَين[٣٢].

من ذلك: الإجازة التي منحها كلّ من الشيخ شمس الدين محمّد بن

---

(٣١) القلقشنديّ، أبو العبّاس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩٢٢، ج ١٤، ص ٣٢٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

عبد الدايم، والشيخ بدر الدين بن جماعة، لنجم الدين محمّد بن أحمد بن عليّ القلقشنديّ حين عرض أمامهما كتاب المنهاج في فقه الإمام الشافعيّ لمحيي الدين النواويّ العام ٨١٣/ ١٤١٠. وممّا كتبه ابن جماعة في هذا الصدد: «كذلك عرض عليّ المذكور (ويقصد نجم الدين محمّد) باطنها عرضًا حسنًا، محرّرًا مهذّبًا متقنًا، عرض مَن أتقن حفظه، وزيّن بحسن الأداء لفظه، ... وقد دلّني ذلك منه... على علوّ همّته، ووفور أريحيّته، وتوقّد فكرته، وانّقاد فطنته، ... وقد أذنت له أن يروي عنّي الكتاب المذكور، ... وكتب بذلك فلان في تاريخ كذا»[٣٣].

ب - الإجازة بالمرويّات على الاستدعاءات

هي الشهادة التي يمنحها الفقهاء والعلماء للمتقدّمين في العلم المقيمين بعيدًا عنهم، يجيزون لهم فيها الرواية، أو السماع عنهم، أو غير ذلك، بناء على استدعاءات خاصّة، عبر المراسلة.

من ذلك على سبيل المثال: الاستدعاء الذي تقدّم به صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ، المُقيم بدمشق، إلى شيخه جمال الدين ابن نباته، نزيل القاهرة، متمنّيًا عليه أن يمنحه إجازتين، عامّة وخاصّة، وأن يأذن له رواية ما ورد في مصنّفاته المتعدّدة[٣٤]. ومن ذلك أيضًا، ما كتب به الشيخ شمس الدين محمّد بن الصائغ على استدعاء لبعض مَن سأله الإجازة يطلب إليه فيه الإجازة في رواية عدد من مصنّفاته، فأجابه: «أجزتُ لك أن تروي هذه وغيرها عنّي، ولك الفضل في قبول ذلك منّي»[٣٥].

ج - المناولة

للحصول على هذه الإجازة يناول الشيخ الطالب الكتاب الذي رواه أو الحديث الذي اختاره، ويطلب إليه أن يرويه بدوره، ويبادره الكلام:

---

(٣٣) المصدر السابق، ص ص ٣٢٩-٣٣١.

(٣٤) ابن حجّة، خزانة الأدب، ص ٣٢٢.

(٣٥) القلقشنديّ، المصدر السابق، ص ص ٣٣٤-٣٣٥.

«هذه روايتي، فاروها عنّي!»، أو يقول له: «خذ روايتي فانسخها، وقد أجزتُ لك أن تحدّث بها عنّي!». وإذا كانت المناولة مصحوبة بالسماع، تصبح الإجازة أكثر أهمّيّة، وأرفع قدرًا في نقل الحديث.

٣ - إجازات السماع أو السماعات

في العصر المملوكيّ، كثرت مجالس القراءة والسماع في دمشق، وضواحيها وقراها، واحتلّت مكانة عالية في أوساط النخب من العلماء ومن المتعلّمين والناس عامّة، وبخاصّة تلك التي يتصدّى للرواية والقراءة فيها شيوخ ثقة، في الجامع الأمويّ، وفي معظم جوامع ومساجد دمشق وضواحيها، وكذلك في مدارسها، ومنازل بعض علمائها وأعيانها[٣٦]. فالعلماء المقادسة الحنابلة الذين انتقلوا إلى دمشق، وأقاموا في سفح جبل قاسيون، قاموا بدورٍ لافتٍ في إحياء مجالس سماع الحديث والرواية، وقد نصّت بعض السماعات الدمشقيّة على أسماء كثيرين منهم، ولا سيّما سماعات المدرسة الضيائيّة التي أنشأها ضياء الدين (٦٤٣/ ١٢٤٥)، أحد شيوخ المقادسة، في جبل قاسيون.

كان الشيخ المسمِع يدوّن، في ذيل كتاب المتعلّم، شهادة يذكر فيها تواريخ المجالس وأمكنتها، وأسماء الحضور، وعناوين الرسائل والكتب التي سمعها عليه الطالب في أثناء حضوره جلسات السماع، كما يدوّن أسماء مصنّفيها أو رواتها، والمواضع التي فاتته، ويشار إليها بعبارة «مع فوت»، ما يثبت متابعة الطالب جلسات السماع، وذلك وفق النموذج التالي: سمع هذه الرسائل أو هذه الكتب (يذكر هنا عناوين الرسائل أو الكتب وأسماء-المصنّفين) على الشيخ الفاضل العالِم (يذكر اسم الشيخ المسمع) بقراءة فلان (يذكر اسم القارئ)، وحضور فلان وفلان (يذكر هنا أسماء الحضور)، وكتب فلان (يذكر اسم الكاتب). وصحّ ذلك وثبت بالمكان الفلاني (يذكر اسم مكان السماع)، في يوم كذا من شهر كذا،

---

(٣٦) راجع: مئنن لبدر وياسين السوس ومأمون الصاغري، معجم السماعات الدمشقيّة، نشر المعهد الفرنسيّ للدراسات العربيّة، دمشق، ١٩٩٦.

سنة كذا. . .[٣٧]. وقد يكون الشيخ المسمِع هو نفسه القارئ أيضًا، أو أن يكون الشيخ المسمِع القارئ والكاتب في الوقت عينه، وفي الحالة الأخيرة قليل الحضور في ما وقعنا عليه من سماعات دمشقيّة عائدة للعصر المملوكيّ.

والسماعات نوعان: إجازة عامّة، تُمنح بالسماع المباشر، هي الأفضل، وإجازة خاصّة من غير سماع، تُمنح من دون اتّصال مباشر بين الطالب وشيخه. ويشير الرحّالة الأندلسيّ ابن بطّوطة[٣٨] الذي زار دمشق في القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ، بأنّه حضر العديد من مجالس القراءة والسماع، المنتشرة في المدينة، واستحصل على سماعات من عشرات العلماء الدمشقيّين المشهود لهم. بيد أنّ هذه الإجازة، بنوعَيها، لا تمنح حائزَها عليها أيّ امتياز، أو تعزّز من مكانته العلميّة.

تاسعًا: الموارد الماليّة للمدرسة

لكلّ مدرسة موارد ماليّة ثابتة لتغطية نفقاتها الإداريّة، ومعلوم ناظر المدرّس وإمامها وهيئة التدريس وطلبة العلم وبقيّة العاملين فيها[٣٩]. تتأتّى هذه الموارد، أساسًا، من الواقف الذي أنشأ المدرسة، وتتكوّن، عمومًا، من عائدات الأراضي والعقارات والأسواق والمعاصر والحمّامات وغيرها الموجودة في دمشق وفي ضواحيها، ممّا هو مذكور صراحة في كتاب الوقف.

والأوقاف نوعان: أوقاف خاصّة وأوقاف عامّة[٤٠].

- الأوقاف الخاصّة: هي أوقاف وراثيّة، يعود حقّ الانتفاع من ريوعها

---

(٣٧) المصدر السابق، ص ص ١١-١٢.

(٣٨) ابن بطّوطة، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣٩) ابن شدّاد، عزّ الدين محمّد، المرجع السابق، ص ص ٢٢٧-٢٣٠.

(٤٠) حول ماهيّة الوقف الإسلاميّ وتطوّره وأنواعه، راجع: Cf. Heffenig, art. «waqf», *EI*, V. 4, pp. 1096-1103.

لورثة الواقف، وتنتقل بعد وفاتهم إلى ذرّيتهم تلقائيًا، ولا تتحوّل بالتالي إلى أوقاف عامّة إلّا بانقراض نسل الواقف.

- الأوقاف العامّة أو الأوقاف الخيريّة: إنّ الدافع الرئيسيّ لهذا النوع من الأوقاف هو الفوز بمرضاة الله وكسب الثواب. وتتوزّع في قسمين يختلفان باختلاف الغرض من كلّ منهما. يختصّ أحدهما بالأغراض الخيريّة البحتة، كالأوقاف على العاجزين عن القيام بفريضة الحجّ، وأوقاف فكاك الأسرى، وأوقاف الفقراء والمحتاجين وأبناء السبيل. أمّا القسم الآخر، وهو موضع اهتمامنا، فينحصر بحبس الأملاك المنقولة وغير المنقولة على المدارس، والجوامع، والمساجد، والخوانق، والزوايا، والرُبُط، وغيرها، وذلك لتأمين الموارد الماليّة اللازمة لتغطية نفقاتها.

يتولّى مراقبة مداخيل المدرسة ومصاريفها ناظر المدرسة، ويناط به أيضًا إدارة أوقافها. ونظرًا إلى ضخامة المهامّ الملقاة على عاتق الناظر، أسندت وظيفة نظارة المدرسة لعالِم ثقة كبير الشأن غالبًا ما يكون قاضي القضاة، يقوم بالإضافة إلى ذلك بمهمّة التدريس[٤١].

وكان من الطبيعيّ أن يرتبط مصير المدارس، استمرارًا وتطوّرًا، أو انحسارًا وزوالًا، بمصير الواقف، إذ كانت، في معظم الأحيان، تزول بعد وفاته. فدار الحديث الأشرفيّة بدمشق عرفت التقدّم والازدهار في زمن واقفها الملك الأشرف موسى الأيّوبيّ، ثمّ تعرّضت للزوال بعد وفاته، ووفاة شيخها وفقيهها تقيّ الدين عثمان بن الصلاح[٤٢].

عاشرًا: هيئة التدريس

١ - تعيين المدرّسين ورتبهم العلميّة

حظيت مهنة التدريس بمكانة مرموقة بدمشق في العصر المملوكيّ،

---

(٤١) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن، الذيل على الروضتين، تحقيق عزّت العطّار، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٢١٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٣.

بوصفها وظيفة جليلة القدر. فحائز هذه الوظيفة كان يتمتّع بحقوق وامتيازات يمنحه إيّاها السلطان أو مَن يمثّله (نائب السلطنة) بـ«توقيع كريم» يُكتب في ديوان الإنشاء، ويُقرأ على الملأ في الجامع الأمويّ.

في هذا التوقيع، ينصح السلطان المدرّس أن يُظهر أمام الطلبة «من مكنون علمه ما كان يخفيه الوقار، وليهب من ممنون فضله ما يهب منه عن ظهر غنى أهل الافتقار، وليقرّر تلك البحوث، ويبيّن ما يردّ عليها، وما يردّ به مَن منعها وتطرّق بالنقص إليها، حتّى لا تنفصل الجماعة إلاّ بعد ظهور الترجيح والإجماع على كلمة واحدة على الصحيح»، وأن يُقبل إلى الدروس وهو «طلق الوجه على جماعته، وليستملهم إليه بجهد استطاعته، وليربّيهم كما يربّي الوالد الولد، وليستحسن ما تجيء به أفكارهم، . . . هذا إلى أخذهم بالاشتغال، وقدح أذهانهم للاشتعال، ولينشّء الطلبة حتّى ينمّي منهم الغروس، ويؤهّل منهم مَن كان لا يظنّ منه أنّه يتعلّم لأن يعلّم ويلقي الدروس»[٤٣].

لم يكن تنظيم المؤسّسات التعليميّة في العصر المملوكيّ أقلّ شأنًا ممّا هو معتمد في الجامعات المعاصرة. فكان لكلّ مؤسّسة تعليميّة هيئة تدريس مؤلّفة من فئات ثلاث، هي: الشيخ، والمدرّس، والمعيد، يتمّ تصنيف رتبهم العلميّة على أساس العلم والكفاية. وكان فقهاء المدرسة من حيث تحصيلهم العلميّ فئتين: الفقهاء المتفهون، ولهم مهمّة الإشراف على حسن سير التدريس، والفقهاء المدرّسون، ويناط بهم الشأن التعليميّ كلّ بحسب اختصاصه[٤٤].

لقد جرت العادة أن يكون الشيخ من مشاهير العلماء، ومن أرسخهم في الدين والعلم. وهو رأس المدرسة يعيّنه السلطان في منصبه بـ«توقيع كريم». يتولّى الشيخ، أحيانًا، إلى جانب مشيخة المدرسة مشيخة العلم الذي تختصّ المدرسة بتدريسه، كمشيخة النحو واللغة العربيّة في المدرسة

---

(٤٣) القلقشنديّ، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٤٧.
(٤٤) السبكي، طبقات، ج ٩، ص ٩٨.

العادليّة التي تولاّها بكفاءة عالية الشيخ علم الدين بن اللورقي (ت. ٦٦١/ ١٢٦٢)[٤٥]، وكذلك الشيخ كمال الدين بن أبي بكر الشريشي (ت. ٧١٨/ ١٣١٨)، شيخ دار الحديث الأشرفيّة، ومتولّي تدريس الحديث فيها[٤٦].

وشاع في عصر المماليك أن يورث أحد المدرّسين، إذا ما شعر بدنوّ أجله، وظيفته لولده، بعد أن يكون قد حيّأه لها. وربّما أوصى بها أيضًا لغير ولده، ممّن يجد فيه الكفاءة لتولّي مثل هذه المهمّة، على أن تقترن هذه الرغبة بموافقة قاضي قضاة المذهب المختصّ، وهو ما كان يحصل في معظم الأحيان. ومن ذلك: إنّ الإمام جمال الدين محمّد بن أحمد الشريشي (ت. ٧٧٩/ ١٣٧٧) الذي درّس في كبريات مدارس دمشق، قد نزل عن التدريس في الباذرائيّة لولده شرف الدين محمود، كما نزل عن التدريس في الإقبالية لولده الآخر بدر الدين محمّد[٤٧]. وكذلك، فإنّ الحافظ المزّي ترك التدريس في دار الحديث الحمصيّة للإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدي (ت. ٧٦١/ ١٣٦٠)[٤٨].

٢ – صفات المدرّس وواجباته

وضع منشئو المدارس معايير دقيقة لاختيار المدرّسين، يمكن تصنيفها في الصفات التالية: الصفات الجسديّة (حسن القدّ، ووضوح الجبين، وسعة الجبهة، وانحسار الشعر عنها، ...)، وصفات عقليّة (رجاحة العقل، وسعة الثقافة، وحدّة الفهم، ...)، وصفات خلقيّة (العدل، والإنصاف، والفقه، والحِلْم، وسعة البال، والوقار، والرفق بالمتعلّم، ...)[٤٩].

---

(٤٥) اليونيني، قطب الدين موسى، ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد، الدكن، ١٩٥٥، ص ٢٢١.
(٤٦) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٩١.
(٤٧) ابن حجر العسقلانيّ، المصدر السابق، ج ٤، ص ص ١٦٤-١٦٥.
(٤٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤، ص ١٣٢.
(٤٩) حول صفات المعلّم وآدابه وواجباته، انظر: العلموي، المصدر السابق، ص ص ٤٣-٥٨.

ويرى الغزالي[٥٠] أنّ على المتصدّي للإمامة أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها، سيرة ورأيًا ولفظًا، لأنّ تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، وأنّ معلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالتقدير والإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم. ويضيف ابن جماعة[٥١] أنّ على المرء أن لا يتصب لهذا المنصب الخطير إلّا «بعد أن يستكمل عدّته، ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبار علماء عصره...». ويضيف العلماء إلى ما تقدّم شروطًا أخرى، منها:

+ أن يتفرّغ المدرّس للتعليم، وله على ذلك جامكيّة وجرّاية. لذا، يتوجّب عليه أن لا يتعاطى عملًا مأجورًا آخر، إلّا إذا قام بالتدريس طوعيًّا، ومن دون أخذ من أموال الأوقاف.

+ أن يتقيّد بشروط الواقف، وينفّذ ما ورد في كتاب الوقف، باستثناء ما له صلة بمصلحة الطلبة. كأن ينصّ كتاب الوقف، مثلًا، على أن تختصّ المدرسة بتدريس المذهب الشافعيّ، فيمكن في هذه الحال إضافة دروس في أيّ من العلوم الشرعيّة، كالفقه، والحديث، والتفسير.

+ أن يكون قادرًا على صون الانضباط والنظام في مجالس دروسه، والحرص على مصلحة الطلبة في تعيين مواقيت التدريس.

+ أن لا يدّعي علم ما يجهل، «وأن لا يذكر الدرس من علم لا يعرفه، فإنّ ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس»، وأن يمتلك الجرأة على إظهار الصراحة في القول إذا ما اقتضى الأمر ذلك، فـ«إذا سئل عن شيء لا يعرفه، أو عرض في الدرس ما لا يعرفه، فليقل لا أعرفه أو لا أتحقّقه أو لا أدري»[٥٢].

---

(٥٠) الغزالي، أبو حامد محمّد، إحياء علوم الدين. القاهرة، ١٩٥٧، ج ١، ص ص ٤٣، ٤٨-٤٩.

(٥١) ابن جماعة، المصدر السابق، ص ٨٢.

(٥٢) العلموي، المصدر السابق، ص ٥٦.

٣ - أوضاع المدرّسين الاجتماعيّة والماديّة

أ - مدرّسو الكتّاب أو المؤدّبون

كان الوضع المعيشيّ لهذه الفئة من المدرّسين يميل، إجمالًا باتّجاه الفقر، إذ انكبّ هؤلاء على تدريس القرآن والمبادئ الدينيّة العامّة بغية كسب الثواب ومرضاة الله، ولم يتقاضوا أجورًا، واكتفوا بالقليل ممّا يجود به أولياء أمور الصبيان، من طعام، وخبز، وتقديمات ماليّة وعينيّة، اختلفت قيمتها باختلاف قدرة الأهل الاقتصاديّة[٥٣]، علمًا بأنّ بعض المؤدّبين قد اعتمد تعليم الصبيان حرفة للارتزاق، وتقاضى أجورًا، كانت تُدفع على مرحلتَين:

في المرحلة الأولى، يدفع وليّ أمر الصبيّ مبلغًا صغيرًا من المال، بصورة دوريّة، أسبوعيًّا أو شهريًّا. أمّا المرحلة الثانية فعندما يختم الصبيّ السورة الأولى من «تبارك». وفي هذه الحال، فإنّ ما يدفع للمؤدّب يعتبر بمثابة عربون شكر وتقدير، ثمّ يتكرّر الأمر عينه، كلّما تعلّم الصبيّ سورة جديدة، إلى أن يختم القرآن الكريم، وعند ذلك يكافأ المؤدّب بأن يقدّم إليه المال والملابس، وغير ذلك من المعطيات[٥٤].

وعلى الرغم من غلبة السمعة الوضيعة لمؤدّبي الكتّاب، باعتبارهم أقلّ المدرّسين علمًا وثقافة، فقد كان من بينهم عدد من الفقهاء والأدباء والشعراء، نذكر منهم: الشيخ علاء الدين عليّ بن بكتوت بن العصروني الدمشقيّ (ت. ٧٤٥/ ١٣٤٤)، أحد فقهاء المدرسة العادليّة الصغرى، ومؤدّب الأيتام فيها[٥٥]، وكذلك الحافظ والمحدّث نجم الدين إسماعيل بن إبراهيم الأنصاريّ المعروف بابن الخبّاز (ت. ٧٠٣/ ١٣٠٢). سمع عليه مشاهير حفّاظ القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ، ومنهم المزّي، والذهبيّ، وولده محمّد.

---

(٥٣) إبن الحاجّ، المدخل، القاهرة، ١٩٢٩، ج ٢، ص ص ٣٠٨، ٣١١ و٣١٤.
(٥٤) المصدر نفسه، ص ص ٣٣١-٣٣٣.
(٥٥) إبن رافع، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٥٠٢-٥٠٣.

ب - مدرّسو المساجد

ليس لدينا الكثير ممّا يمكن الاعتماد عليه للتعرّف إلى الأوضاع المادّيّة لهذه الفئة من المدرّسين، ومعظمهم من الغرباء، وبخاصّة من المغاربة. ذلك أنّهم كانوا يقومون، إجمالًا، بتدريس الأجيال، ولا يعنيهم، من الأمر، سوى الفوز بالثواب والأجر، أو أنّهم كانوا ممّن يتلقّون وصايا بعض المحسنين، بإلقاء دروس في العلوم الشرعيّة على عدد محدود من الطلبة، مقابل تأمين نفقات أولادهم.

ففي الجامع الأمويّ، مثلًا، جرت العادة أن توقف رواتب شهريّة على الطلبة والمدرّسين، بحيث ينال الطالب عشرة دراهم، والمعيد عشرين درهمًا، والمدرّس ثمانين درهمًا، أو أن يُخصّص لكلّ حلقة معلوم محدّد للمدرّسين والطلبة يلتزم الواقف تسديده.

ج - مدرّسو دور العلم الأخرى (الخوانق والرُبُط والزوايا)

لم يكن الوضع المعيشيّ لهؤلاء المدرّسين سيّئًا. فعلى الرغم من عدم ثبات رواتبهم وانتظامها، فإنّ مداخيلهم الشهريّة تأثّرت بعوامل عدّيدة، أهمّها: مقدار ريع الوقف المخصّص لها، ومكانة المدرّس وسمعته العلميّة، وشخصيّة واقف المدرسة أو ناظرها ومزاجيّته، أكريمًا كان أم شحيحًا.

في المدرسة الظاهريّة الجوّانيّة، مثلًا، كان معلوم المدرّس الشافعيّ أو الحنفيّ مئة وخمسين درهمًا في الشهر، بالإضافة إلى رطلين خبزًا مثلّثًا بالدمشقيّ، والمعيد أربعين درهمًا، ورطل خبز، وشيخ الحديث ستّين درهمًا[٥٦]. وفي دار الحديث السكّريّة، كان للشيخ ثلاثون درهمًا ورطل خبز، ولقارئ الحديث عشرون درهمًا وثمان أواق خبزًا. أمّا في المدرسة الشاميّة البرّانيّة، فكان للمدرّس ثلاثون درهمًا ناصريًّا من الفضّة، علاوة

(٥٦) ابن شدّاد، المصدر السابق، ص ص ٢٢٧-٢٢٩.

على غرارتَين، واحدة من القمح، وأخرى من الشعير[٥٧].

أمّا القضاة المدرّسون فكانوا يتمتّعون بحياة كريمة ومستوى معيشة مرتفع. وكان مقرّرًا أن يكون راتب القاضي خمسين دينارًا شهريًا، كحدّ أقصى، فضلًا عن الأرزاق العينيّة وبعض من ريوع أوقاف المدرسة أو المدارس التي يدرّس فيها، ما يعني أنّ من حقّ القاضي أن يمارس مهنة التدريس إلى جانب وظيفة القضاء. يذكر النويري أنّ قاضي قضاة الشافعيّة بدمشق بهاء الدين يوسف بن يحيى القرشيّ، المعروف بابن الزكي (ت. ١٢٨٦/٦٨٥)، جمع له أجلّ مدارس دمشق في عصره، وهي العزيزيّة، والعادليّة الكبرى، والتقويّة، والكلّاسة، والمجاهديّة، والفلكيّة، وأفاد من ريوع أوقاف عدّة ممّا جعله من الأثرياء[٥٨].

حادي عشر: المرأة الدمشقيّة والتعليم

حظيت المرأة الدمشقيّة بقسط وافر من الاحترام في العصر المملوكيّ، لكنّ حظّها من التعليم كان ضئيلًا، مقارنةً بالرجل، أسوة بمثيلاتها في مجتمعات الشرق والغرب في القرون الوسطى، بفعل الذهنيّة الذكوريّة، وثقل المفاهيم والعادات الاجتماعيّة السائدة وقتذاك. ومع ذلك، تفيدنا المصادر المعاصرة التي اختصّت بالتعليم مباشرة، أو تلك التي عرضت له بطريقة غير مباشرة، ككتب التراجم أو كتب التأريخ العامّ، أنّ المرأة الدمشقيّة لم تَرْتَد الكتّاب، ولم تُتَحْ لها فرصة المشاركة في حلقات التعليم في المدارس، أو في المساجد، والخوانق، والزوايا، والربط، بل نهلت العلم عن طريق والدها أو أسرتها، أو بواسطة مدرّس خاصّ أو بعض النسوة المتعلّمات.

وعلى الرغم من ذلك، أسهمت النسوة الدمشقيّات بشكل واسع في

---

(٥٧) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٨٤.

(٥٨) النويريّ، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق السيّد الباز العريني، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٣١، ص ص ١٦٤-١٦٥.

الميدان الثقافيّ، وكان لهنّ إسهامات نشطة في فضاء الحياة العلميّة والدينيّة. فثمّة كثيرات منهنّ كان لهنّ دور مهمّ في تعليم الفقه والحديث والقرآن، العلوم الأكثر تدريسًا بواسطة النساء في العصر المملوكيّ، وذلك ما لفت إليه مؤرّخو العصر، مثل ابن حجر العسقلانيّ، وابن رافع السلاميّ، وابن كثير، والسخاوي. ومن بين النسوة الدمشقيّات اللواتي ذاعت شهرتهنّ في علم الحديث: فاطمة بنت الشيخ جمال الدين سليمان الأنصاريّ (ت. ٧٠٨/١٣٠٨)، التي امتلكت ثروة عظيمة مكّنتها من القيام بكثير من أعمال البرّ، وإنشاء عدد من المدارس والبيمارستانات، ورتّبت لها أوقافًا. تتلمذ على الشيخة فاطمة بعض كبار علماء العصر، كصلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ، وكذلك حبيبة بنت محمّد بن قدامة المقدسيّ شيخة الحديث (ت. ٧١٣/١٣١٢)، التي استقى منها الشيخ شرف الدين الدمياطي الكثير من رواياته. ومن النسوة اللواتي برعن في القراءة: حكيمة بنت محمود بن محمّد قارئة القرآن الكريم، والشيخة عائشة بنت إبراهيم بن صدّيق زوجة الحافظ جمال الدين المزّي.

يشير ما سبق إلى أنّ المرأة الدمشقيّة في زمن المماليك مارست مهنة التدريس، وإن لم تسلم وظيفة التعليم في أيّ من دور العلم، وأنّ معظم النساء العالمات كنّ من بنات العلماء أو من زوجاتهم أو من أخواتهم، كما أنّ كثيرات منهنّ تنقّلن بين الشام ومصر في طلب العلم على كبار علماء العصر أسوة بالرجال.

ثاني عشر: خاتمة

نستخلص ممّا تقدّم أنّ مهنة التعليم بدمشق في عصر المماليك، كما في سائر المناطق الإسلاميّة كانت مهنة مقدّرة، إذ حظي المدرّسون بكلّ فئاتهم باحترام الخاصّة والعامّة. ورغم تدخّل السلطة المملوكيّة في تعيين المدرّسين وعزلهم، فقد روعيت في اختيار المدرّسين شروط تتّصل بكفاياتهم وأهليّتهم للقيام بهذه الوظيفة السامية، في ضوء صفاتهم الجسديّة والخلقيّة والعقليّة.

وممّا ميّز العصر المملوكيّ، دخول المرأة عالم الرجال، من خلال انخراطها في معترك التعليم، وبخاصّة في مجال الفقه، والحديث، وتلاوة القرآن، رغم فرض الحجاب عليها. واللافت في الواقع الدمشقيّ أيّام المماليك، وفرة الأعطيات والمساعدات النقديّة والعينيّة التي كان يقدّمها الحكّام وأهل البرّ إلى الفقراء من طلبة العلم، تسهيلًا لتفرّغهم لاكتساب المعرفة في العلوم الدينيّة والتبحّر فيها، ممّا أدّى إلى تزايد عدد طلبة العلم الذين قصدوا المدينة، من كلّ حدب وصوب، وبخاصّة من بلاد المغرب والأندلس، كي ينهلوا العلم من معين كبار شيوخ دمشق وعلمائها.